﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

تدبر القرآن

تأليف

سلمان بن عمر السنيدي

الطبعة الثانية

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

طبعة مزيدة ومنقحة

ح مجلة البيان ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنيدي، سلمان عمر

تدبر القرآن - الرياض

١٦٠ ص؛ ١٧× ٢٤

ردمك: ٨-٣-٩٣٦٥-٩٩٦٠

١ - القرآن - مباحث عامة.

أ - العنوان

ديوي ٢٢٩ ٢٣/٣٠٦٩

رقم الإيداع ٢٣/٣٠٦٩

ردمك ٨-٣-٩٣٦٥-٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

«من لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر، لم يدرك من لذة القرآن شيئاً».

[الزركشي، البرهان، ٢ / ١٧١]

«إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته!».

[ابن جرير الطبري، معجم الأدباء، ١٨ / ٦٣]

«المطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين». [شيخ الإسلام ابن تيمية، الفتاوى، ٢٣ / ٥٤]

«يا ابن آدم، كيف يرق قلبك وإنما همتك في آخر السورة؟!».

[الحسن البصري، مختصر قيام الليل للمروزي، ص ١٥٠]

«إذا مر ـ متدبر القرآن ـ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن».

[ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ص ٢٢١]

المقدمـة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وبعد.

فكثيراً ما كان المرء يسمع الحث على كثرة تلاوة القرآن مدعماً بآيات وأحاديث وأقوال السلف الصالح، وكانت غفلة الناس عن القرآن دافعاً لمثل هذا الحث أن يظهر ويُكرر فوق المنابر، ويكتب عنه نشرات ومقالات، ولا شك في فضيلة تلاوة القرآن وكثرة أجرها، فالقرآن كله بركة، ولكن ما الحكمة من كثرة القراءة؟ وأيهما أفضل: كثرة القراءة أم التأني بالقراءة إذا كان وقت القراءة واحداً؟ وهل يكرر المرء الآيات التي أَثَّرت فيه أو يستثمر الوقت في مزيد من القراءة ليختم السورة؟ ولماذا لا يخشع أكثر الناس إلا عند آيات العذاب وذكر النار؟ وما الذي عاب الله ـ سبحانه ـ به صنفاً من الناس في قوله: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [**محمد**: ٢٤]، على الرغم من أنهم كانوا يقرؤون القرآن ويسمعونه؟ وما أثر القرآن على قلب الإنسان القارئ؟ ولا شك أن القرآن عظيم وجليل، ولكن أين هذه العظمة وذلك الإجلال حين قراءته لا حين التحدث عن فضائله؟

لقد كانت هذه الأسئلة وما في معناها تدور في خَلَدي، فتلمست القراءة فيما كُتب عن التدبر فوجدت الأمر عجباً؛ ففي الحث على التدبر آيات وأحاديث ومواقف، وأقوال وأحوال للسلف أكثر عدداً من مثيلاتها الدالة على فضل القراءة، بل أقوى حجةً وأعمق أثراً[(١)]!

وبدأت تظهر جلياً إجابات واضحة عن تلك الأسئلة، وتفتحت جوانب

(١) انظر كلام الآجري، ص ٢٠، ١٠٩، والنووي، ص ٢٠.

رحبة حين قراءة القرآن، ولـم تكن تلك الإجابات سراً مكنوناً، أو معاني مضمرة في بطون التفاسير، أو ألفاظاً مجملة لم تتضح مقاصدها، بل كانت متمثلة في كلمة واحدة هي التدبر.

لم يكن التدبر عند سلفنا الصالح درساً يسمع أو كتاباً يتلىٰ بقدر ما كان شعوراً ينبض في قلب القارئ وهو يتجه لقراءة القرآن، وثمرة يقصدها حين تلاوة الآيات، وموردًا ينهل منه القلب حين تدارسه، فإذا حال بينه وبين منهله لفظٌ لم يدرك معناه أومَثَلٌ لم يفقه مغزاه أو تشبيهٌ لم يأسره تركيبه اللغوي توقف، وبحث وفتش حتىٰ يدرك قلبه الغنيمة، ولم يرض أن يكون هذا العارض مسوغاً لمواصلة القراءة وإلا فإن الهدف قد تغير، والمقصد من القراءة تحول إلىٰ ما هو أدنىٰ، وتُركَ الذي هو خير.

إن قلب المتدبر للقرآن ينتابه تطلُّع وتشوُّف كما ينتاب المريض شعور بالبحث عن العلاج، أو كما ينتاب الحائر شعور بالبحث عن الدلالة والهداية، إن المتدبر للقرآن في قلبه حاجةٌ ماسةٌ وفاقةٌ متوقدةٌ لغاية لا يجدها إلا في القرآن، فهو يقرأ القرآن لقصد وغاية لا يقر له قرار، ولا تستقيم له قراءة، ولا يهدأ له بال حتىٰ يظفر بها.

ولا عجب أن يجد القلب راحته في تدبُّر القرآن، وتفهُّم ألفاظه ومقاصد آياته، فهو إنما يتذوق حلاوة المناجاة لكلام الخالق المحكم المفصل، كيف لا وهو يتسامىٰ عن دنياه ويتصور المعاني ليحلق في آفاق الآيات، فربما يعيش لحظة مع معنىً قرآني تكلَّم به الله مشعراً به خلجات قلبه؛ فيجد لقلبه حياةً أخرىٰ، ولقراءته طعماً، ولدعائه لذةً.

ثم يعيد القراءة فتتجدد له معان في قلبه لا يصفها لسانه، ولا يكتبها قلمه، ثم يستمر في القراءة فلا يحتمل قلبه الضعيف تدفق تلك المعاني الضخمة، ورهبة التأمل لروعة خطاب الرب، وعظمة التوجيه الإلهي، وثقل الأمانة التي طوتها حروف معدودة؛ فعندها ترق النفس وتصيبها السكينة، وتلفها الخشية والرهبة

والرغبة، ويعتريها البكاء والوجل، ثم يتجلىٰ للقلب من المعاني ما يشعره بالقرب من الله الكريم، فيطمئن القلب إلىٰ ذكر رحمة الرحيم الرحمن(١)، ويدرك عندها حاجته إلىٰ قراءة القرآن وتدبُّره، كلما طمح قلبه إلىٰ تلك الأحوال التي تفيض نوراً وروحاً وسكينة، ويدرك سر عظمة الأجر المترتب علىٰ قراءة كل حرف من كتاب الله.

إن أهل القرآن هم الذين وجدوا في القرآن شفاء قلوبهم، ودواء نفوسهم، ومنهل عقولهم، فلا إلىٰ غيره يردون، ولا من سواه يأخذون، ولا بدونه ينعمون، ولا بقراءته يسأمون، بل بلذيذ خطابه يفرحون، وبنفحاته ينعمون، فهو قرة قلوبهم، وريّ ظمئهم، فلا يذكرون حين التلذذ به تعباً، ولا يستثقلون بعده عبادة، ولا يجدون في قلوبهم بعده حرج من تكليف ولا تسخط من بلاء.

ثم - أيها القارئ الكريم - إن البحث في هذا الميدان مشاركة بجهد المقل، لعله يجدد للقارئ معارف وأحوالاً قد عرفها، أو لعله يعرّفه علىٰ أحوال جديدة، فيظفر قلبه بحياة جديدة مع القرآن، وسبيل لتدبره، ولذة وطعم لقراءته، وربما يجد القارئ إطالة في نقل بعض النصوص لسلفنا الصالح، وقد كان ذلك لإبقاء روح التأثير فيها؛ رجاء أن يدرك القارئ بكامل النص أموراً لا يجدها باجتزاء كلمات يسيرة من كلامهم.

هذا، وأتقدم بالشكر والتقدير لكل من أعان علىٰ إتمام البحث وتسديده.

وأسأل الله القدير أن ينفعنا بالقرآن، ويجعله ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وأن يجعله حجة لنا لا علينا، إنه هو السميع العليم.

رجب ١٤٢٢هـ

سلمان بن عمر السنيدي

الرياض ١١٥٦٣ ـ ص.ب ٥٢١٨٥

(١) ومصداق ذلك في قوله - تعالىٰ -: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

تمهيد

معنى التدبر في أصل اللغة:

هو النظر في عاقبة الأمر والتفكر فيه[١]. وتدبّر الكلام: النظر في أوله وآخره، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة؛ ولهذا جاء على وزن التفعّل كالتجرّع والتفهّم والتبيّن؛ ولذلك قيل إنه مشتق من النظر في أدبار الأمور، وهي أواخرها وعواقبها. ومنه تدبر القول، كما في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ**﴾ [**المؤمنون**: ٦٨][٢].

معنى تدبر القرآن:

هو تفهُّم معاني ألفاظه، والتفكر فيما تدل عليه آياته مطابقةً، وما دخل في ضمنها، وما لا تتم تلك المعاني إلا به؛ مما لم يعرج اللفظ علىٰ ذكره من الإشارات والتنبيهات، وانتفاع القلب بذلك، بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه[٣].

قال الطبري ـ رحمه الله ـ في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾ [**ص**: ٢٩]: «ليتدبروا حجج الله التي فيه، وما شرع الله فيه من الشرائع، فيتعظوا ويعملوا به»[٤].

---

(١) انظر: لسان العرب، ٤/ ٢٧٣؛ الفروق اللغوية، للعسكري، ص ٥٨؛ وكتاب التعريفات، للجرجاني، ص ٧٦؛ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٥/ ٢٩٠؛ وجامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ١/ ٨٧، ٥/ ١٨٠.

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ص ٢١٦.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، ١/ ٥٠١؛ والتبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص ١٤٥؛ وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ١٥، وسورة غافر، تفسير الآية (٧)، ص ٧٣٣؛ والقواعد الحسان لتفسير القرآن له: القاعدة (١١)، ص ٢٨.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، ٢٣/ ١٥٣.

وقال أبو بكر ابن طاهر: «تدبرْ في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه»[١].

ويقول الهروي - رحمه الله -: «أبنية التذكر ثلاثة: الانتفاع بالعظة، والاستبصار بالعبرة، والظفر بثمرة الفكرة»[٢].

ويستفاد من كلام العلماء في معنى التدبر: أن تدبر القرآن يشمل الأمور الآتية:

- معرفة معاني الألفاظ، وما يراد بها.
- تأمل ما تدل عليه الآية أو الآيات، مما يفهم من السياق أو تركيب الجمل.
- اعتبار العقل بحججه، وتحرك القلب ببشائره وزواجره.
- الخضوع لأوامره، واليقين بأخباره.

معاني المفردات المتعلقة بالتدبر:

وهي معان متقاربة تجتمع في شيء، وتفترق في آخر، منها المفردات الآتية:

الفهم: هو العلم بمعنى الكلام.

الفقه: هو العلم بمقتضى الكلام على تأمله؛ ولهذا تقول: تفقّه ما أقول. أي تأمله لتعرفه.

البصيرة: تكامل العلم[٣].

الفكر: هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة.

التفكر: استعمال الفكرة في ذلك وإحضارها عنده.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٩/٣٨.
(٢) مدارج السالكين، ١/ ٤٤٤ - ٤٤٩.
(٣) انظر: كتاب الفروق اللغوية، للعسكري، ص ٦٩، ٧٣.

التذكر: من الذكر وهو ضد النسيان؛ وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب، واختير له بناء (التفعل) لحصوله بعد مهلة وتدرج، كالتبصر والتفهم والتعلم، وهو إحضار العلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ [**الأعراف**: ٢٠١].

فالتذكر يفيد تكرار القلب علىٰ ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت، ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب. والتفكر: يفيد تكثير العلم، واستجلاب ما ليس حاصلاً عند القلب، فالتفكر يحصله، والتذكر يحفظه، وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر.

التأمل: مراجعة للنظر كرة بعد كرة، حتىٰ يتجلىٰ له وينكشف لقلبه، وتحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه، وجمع الفكر علىٰ تدبره وتعقله(١).

الاعتبار: وهو من العبور؛ لأنه يعبر منه إلىٰ غيره، فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلىٰ معرفة ثالثة؛ ولهذا يسمَّىٰ (عِبرة): وهي علىٰ بناء الحالات، كالجِلسة والقِتلة، إيذاناً بأن هذا العمل قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه إلىٰ المقصود به، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ**﴾ [**النازعات**: ٢٦]، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [**آل عمران**: ١٣].

الاستبصار: وهو استفعال من التبصّر، وهو تبين الأمر وانكشافه، وتجليه للبصيرة(٢).

---

(١) انظر: مدارج السالكين، ١/ ٤٥١.

(٢) من أول كلمة (الفكر) إلىٰ آخر الكلمات، ذكر تلك المعاني ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه: (مفتاح دار السعادة)، ص ٢١٦، وقد نقلت بتصرف يسير.

المبحث الأول

أهمية تدبُّر القرآن

أهمية تدبر القرآن

تبرز أهمية تـدبر القرآن الكريم في أمور كثيرة، وكـل أمر كاف وحده أن يكون داعياً إلىٰ تدبر القرآن، والتـأمل في معانيـه، والتأثر عنـد قراءته، ولعل من أهـمها الأمور الآتية:

أولاً: بركة القرآن:

وصف اللــه كتابه بأوصاف عـظيمة؛ منـها أنه كتـاب عزيز مبـارك، وأنه نور وفرقـان، ورحمـة وبرهـان، وبصـائر وشـفاء، وهـدىٰ وبشـرىٰ، قال ـ سبحـانه ـ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وكثيراً مـا يقـرن اللـه هذه الأوصاف بالحث علىٰ التـدبر والاعتبار والتذكر، قـال ـ سبحانه ـ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، والمعنىٰ: كتاب كثير الخير والبركة [1]. وقال عنه ـ سبحانه ـ: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعـام: ١٠٤]، ويقــول ـ سبحـانه ـ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]. ويبين الآجري ـ رحمـة الله عـليه ـ بـركة القرآن علىٰ العبد الذي أقبل علىٰ كتـاب ربه بأدب واعتبار فيقول: «من تلا القرآن وأراد به متاجـرة مولاه الكريم؛ فإنه يربحـه الربح الذي لا بعده ربح، ويعـرفه بركة المتاجـرة في الدنيـا والآخرة . . . قال ـ تعـالىٰ ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ

---

(١) فتح القدير، للشوكاني، ٤ / ٤٣٠.

وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]»(١).

وبيَّن الرسول ﷺ أثر بركة القرآن وقوة تأثيره وتميزه عن باقي معجزات الأنبياء، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: «ما من نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(٢).

ويصور الرسول ﷺ بركة القرآن على المؤمن الذي قرأ القرآن فتأثر به فيقول: «المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب. والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها . . .»(٣). ومن بركات القرآن أنواع هدايته؛ وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، يقول السعدي ـ رحمه الله ـ: «﴿أَقْوَمُ﴾: أي أكرم وأنفس وأصلح وأكمل استقامة، وأعظم قياماً وصلاحاً للأمور»(٤).

وأمام هذه الفضائل يقول ابن مفلح ـ رحمه الله ـ موجهاً حامل القرآن لشكر هذه النعمة العظيمة المباركة عليه: «أن يعتقد جزيل ما أنعم الله عليه إذ أهّلَهُ لحفظ كتابه، ويستصغر عَرَض الدنيا أجمع في جنب ما خوَّله الله تعالى، ويجتهد في شكره»(٥).

ثانياً: حاجة القلب إلى تدبر القرآن:

إن في القلب حاجة لا يسدها إلا ذكر الله والتلذذ بكريم خطابه، وإن فيه

(١) أخلاق حملة القرآن، ص ١٥، ١٦، ١٧.
(٢) رواه البخاري، رقم ٤٩٨١؛ ومسلم، رقم ١٥٢.
(٣) رواه البخاري بهذا اللفظ، رقم ٤٨٨٤، ٧٥٦٠؛ ومسلم، رقم ٧٩٧؛ وأبو داود، رقم ٤٨٣٠؛ والترمذي، رقم ٢٨٦٩؛ والنسائي، ٨/ ١٢٤.
(٤) القواعد الحسان، ص ١٤٥.
(٥) الآداب الشرعية، ٢/ ٣٠١.

وحشة لا يزيلها إلا الأنس بكتابه، وإن فيه قلقاً وخوفاً لا يؤمنه إلا السكون إلىٰ ما بشر الله به عباده، وإن فيه فاقة لا يغنيها إلا التزود من حِكَم القرآن وأحكامه، وإنه لعلىٰ حيرة واضطراب لا ينجيه منها ويهديه إلىٰ سواء الصراط إلا الاهتداء بنور ربه وبرهان كتابه العزيز. قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [**يونس**: ٥٧ – ٥٨] . وإن العبد المؤمن مهما بلغ من العلم مكانةً ومن التقوىٰ منزلاً؛ فإنه لا يستغني عن القرآن مثبتاً وهادياً ومعيناً، وكيف يستغني والله يقول لنبيه: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [**هود**: ١٢٠] ؟! ولذلك قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وحاجة الأمة ماسّة إلىٰ فهم القرآن»(١) لصلاح قلوبها، وثباتها علىٰ الهدىٰ والدين.

والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ حينما عاتب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في خشوع قلوبهم، والتأثر بكلامه حذَّرهم أن مغبة التمادي في هجر تدبر كتابه هي قسوة القلوب، فقال: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [**الحديد**: ١٦] ، قال محمد بن كعب ـ رحمه الله ـ: «كانت الصحابة بمكة مجدبين فلما هاجروا أصابوا الريف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقست قلوبهم فوعظهم الله فأفاقوا»(٢) . . والعتاب لعامة المؤمنين أحرىٰ وأولىٰ.

ويخبر ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن الحالة التي ينتفع فيها القلب بالقرآن فيقول: «إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، ولكن إذا وقع في القلب

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص ٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ٢٥٠.

فرسَخَ فيه نفع»(١). ومصداق ذلك قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، فالتدبر حال سماع القرآن يزيد القلب نوراً وإيماناً، قال جندب بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً»(٢).

ورسوخ القرآن الكريم في القلب الذي يحصل به الانتفاع لا يكون ترديداً بارداً باللسان لا يحرك قلباً ولا يغير واقعاً، بل رسوخه بأمورٍ يبينها الآجري ـ رحمه الله ـ بقوله: «فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرىٰ بها ما حسن من فعله وما قبح فيه، فما حذَّره مولاه حذره وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغّب فيه مولاه رغب فيه ورجاه؛ فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً، وأنيساً وحرزاً؛ ومن كان هذا وصفه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد علىٰ والديه وعلىٰ ولده كل خير في الدنيا والآخرة»(٣)، «وكان القرآن له شفاءً، فاستغنىٰ بلا مال، وعزَّ بلا عشيرة، وأنس مما يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها: متىٰ أتعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده: متىٰ أختم السورة؟ وإنما مراده: متىٰ أعقل عن الله الخطاب، متىٰ أزدجر، متىٰ أعتبر؟ لأن تلاوة القرآن عبادة والعبادة لا تكون بغفلة»(٤).

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «ينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع؛ فهذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب،

(١) رواه مسلم، رقم ١٨٥٨؛ ونحوه البخاري، ٦ / ٢٣٨؛ وأبو داود، رقم ١٤٦٧.
(٢) رواه ابن ماجه، ص ٧؛ انظر: حياة الصحابة، ٣ / ١٧٦.
(٣) أخلاق حملة القرآن، ص ٤٠.
(٤) أخلاق حملة القرآن، ص ١٨.

ودلائله أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر»(١) .

وقال ـ سبحانه ـ في وصف قلوب الخاشعين: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [**الزمر**: ٢٣]. فقوله: ﴿**تَلِينُ**﴾: أي ترق قلوبهم وتطمئن وتسكن(٢) .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف الرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه. فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها. فإذا قرأه بتفكر حتىٰ إذا مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهُّم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهُّم، وأنفع للقلب، وأدعىٰ إلىٰ حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن . . . فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب»(٣) .

وقال ـ رحمه الله ـ: «فليس أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلىٰ نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر علىٰ معاني آياته؛ فإنها تطلع العبد علىٰ معالم الخير والشر . . . وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه . . . وتعطيه قوةً في قلبه، وحياةً، وسعةً، وانشراحاً، وبهجةً وسروراً، فيصير في شأن والناس في شأن آخر . . . فلا تزال معانيه تنهض بالعبد إلىٰ ربه . . . وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق . . . وتناديه كلما فترت

(١) الأذكار، ص ٩٠؛ والتبيان، ص ٦٠.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٢٥٠.
(٣) مفتاح دار السعادة، ص٢٢١.

عزماته وونىٰ في سيره: تقدَّم الركب وفاتكَ الدليل . . . وفي تأمل القرآن وتدبره أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحِكَم والفوائد»(١).

ويبين حاجةَ القلب للقرآن الدعاءُ العظيمُ الذي يرويه ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علَّمتَه أحداً من خلقك، أو أنزلتَه في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي؛ إلا أذهب الله همّهُ وحزنه، وأبدله مكانه فرجاً». قال: فقيل: يا رسول الله! ألا نتعلمها؟ فقال: «بلىٰ! ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»(٢).

ولذلك قال مالك بن دينار: «ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟! إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض»(٣).

ولذلك قال إبراهيم الخواص: «دواء القلوب في خمسة ـ وذكر أولها ـ: قراءة القرآن بالتدبر»(٤).

«فإذا علم هذا علم افتقار كل مكلف لمعرفة معاني القرآن والاهتداء بها؛ كان

---

(١) مدارج السالكين، ١/ ٤٥١ ـ ٤٥٣.

(٢) رواه أحمد، ١/ ٣٩١؛ وأبو يعلىٰ، ١/ ١٥٦؛ والطبراني في الكبير، ٣/ ١٧٤؛ وابن حبان، ٢٣٧٢؛ والحاكم ١/ ٥٠٩؛ وابن السني، ٣٣٥، وعنده أيضاً (٣٤٣) من رواية أبي موسىٰ الأشعري؛ وحسَّن الحديث ابن حجر في تخريج الأذكار؛ وقال أبو الفضل البغدادي: حديث حسن عالي الإسناد؛ انظر: كتاب (الأذكار) تعليق المحقق، ص ١٠٤؛ وأقره شيخ الإسلام في الكلم الطيب، ١٢٣؛ وصححه ابن القيم في شفاء العليل (٢٧٤)؛ وصححه الألباني في الصحيحة ١٩٩؛ وصحيح الكلم الطيب، ص ١٠٢.

(٣) فن الترتيل، ص ٩، لعبد الله الصباغ.

(٤) التبيان، ص ٦١.

حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده ويستفرغ وسعه في تعلُّمه وتفهُّمه، بأقرب الطرق الموصلة إلىٰ ذلك»(١).

ثالثاً: الثناء على من تدبر القرآن وتأثر به:

وردت آيات كثيرة في الثناء علىٰ من تأثر بكلام الله عز وجل، تحمل في طياتها صوراً وأحوالاً لتدبر القرآن الكريم والتأثر به، منها قوله ـ سبحانه ـ: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ [**الأنفال**: ٢ ـ ٤]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ [**الإسراء**: ١٠٧ ـ ١٠٩]، فيبكون بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم، حيث ﴿**يَزِيدُهُمْ**﴾ سماع القرآن ﴿**خُشُوعًا**﴾: أي لين قلوبٍ ورطوبة عينٍ(٢). وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ [**الزمر**: ٢٣]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا**﴾ [**مريم**: ٥٨]، ومعنىٰ ﴿**بُكِيًّا**﴾: بكاء وحزن بلا صوت(٣). وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا**﴾ [**الفرقان**: ٧٣]، قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «فكانت حالهم ـ يعني رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ـ عند المواعظ: الفهم عن الله، والبكاء خوفاً من الله؛ ولذلك وصف الله

(١) تفسير السعدي، ١٢.
(٢) انظر: فتح القدير، ٣/ ٢٦٤.
(٣) المرجع السابق، ٣/ ٣٣٩.

أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكر الله وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم . . . فمن كان مستناً فليستن»(١).

رابعاً: ذم من ترك تدبر القرآن ولم يتأثر به:

يقول الله - سبحانه وتعالىٰ - عمن يشتري لهو الحديث وبلغ الغاية في الإعراض عن آيات الله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]، ويقول القرطبي - رحمه الله تعالىٰ - في قوله - تعالىٰ -: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]: «حثَّ علىٰ تأمل مواعظ القرآن، وبيّن أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه ولرأيتها علىٰ صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة متشققة من خشية الله، وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده ولا ترهبون من وعيده!»(٢).

وقد ذم الله في كتابه حال من هجر تدبر القرآن، ولم يفقه الآيات، ولم يدَّبر القول في صيغ مختلفة كقوله - تعالىٰ -: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله - تعالىٰ -: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٦، ١٧]، وقوله - سبحانه -: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، قال الشنقيطي - رحمه الله -: «ما تضمنته الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار علىٰ من أعرض عن كتاب الله؛ جاء موضحاً في آيات كثيرة . . . ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم - أي

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٧ / ٣٦٦.
(٢) المرجع السابق، ١٨ / ٤٤.

تصفحها وتفهمها وإدراك معانيها والعمل بها ـ فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر . . . وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به أمر لا بد منه للمسلمين . . . فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه، والعمل به وبالسنة الثابتة المبينة له ـ من أعظم المناكر وأشنعها»[١]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وترك تدبره من هجرانه»[٢]. وقال القرطبي في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]: «عاب المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكر فيه وفي معانيه»[٣].

وفي وصف الخوارج من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال ﷺ: «يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم»[٤]؛ أي أنهم يأخذون أنفسهم بقراءة القرآن وإقرائه وهم لا يتفقهون فيه ولا يعرفون مقاصده[٥]، قال الزركشي ـ رحمه الله ـ: «ذمهم بإحكام ألفاظه وترك التفهم لمعانيه»[٦]، وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: (قال النووي ـ رحمه الله ـ: «المراد أنهم ليس لهم فيه حظ إلا مروره على لسانهم، لا يصل إلى حلوقهم فضلاً عن أن يصل إلى قلوبهم؛ لأن المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب»)[٧].

ويقول ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ: «قد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل

(١) الأضواء، ٧/ ٤٢٨.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير، ٦/ ١٠٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٥/ ٢٩٠.
(٤) رواه البخاري، رقم ٧٥٦٢؛ ومسلم، رقم ١٠٦٣، وفي رواية لحذيفة ـ رضي الله عنه ـ: «ولا تعيه قلوبهم».
(٥) انظر: الاعتصام، للشاطبي، ٢/ ٢٢٦.
(٦) البرهان، للزركشي، ١/ ٥٣٨.
(٧) فتح الباري، ١٢/ ٢٩٣.

الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلىٰ خاتمته لا يدري ما آمره، ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده، ينثره نثر الدقل!»(١).

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «لا تهذوا القرآن هذّ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل؛ قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة»(٢).

ومثّل الله حال اليهود مع التوراة أقبح تمثيل فقال ـ سبحانه وتعالىٰ ـ: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [**الجمعة**: ٥]. قال الطرطوشي ـ رحمه الله ـ: «فدخل في عموم هذا من يحفظ القرآن من أهل ملتنا ثم لا يفهمه ولا يعمل به»(٣).

بل عدّ كثير من العلماء أن من بدع القرّاء القراءة بالهذرمة(٤)، وهي قراءة سريعة لا تدبر معها ولا فقه للمعاني ولا تأثر بالمواعظ، قال الطرطوشي ـ رحمه الله ـ: «مما ابتدعه الناس في القرآن الاقتصار علىٰ حفظ حروفه دون التفقه فيه»(٥).

خامساً: التدبر من النصح لكتاب الله:

عدّ العلماء تدبر القرآن وتفهُّم علومه من النصح لكتاب الله؛ وذلك لما ورد في حديث تميم الداري ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، ١/ ١٦٥؛ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، ١/ ١٦٥؛ انظر: حياة الصحابة، ٣/ ١٧٥.

(٢) رواه البغوي في تفسيره، ٤/ ٤٠٧؛ والبيهقي في شعب الإيمان، ١/ ٣٤٤؛ والآجري، ص ١٩؛ وعنه في الإتقان، ١/ ١٤٠، وروي مرفوعاً عن ابن عباس وعن علي بأسانيد واهية.

(٣) كتاب البدع والحوادث، ص ١٠١.

(٤) انظر: بدع القراء، للشيخ بكر أبو زيد، ص ١٥؛ وكذلك بدع القراء، لمحمد موسىٰ، ص ٢١؛ وإصلاح المساجد، للقاسمي، ١٢٧؛ وانظر: معجم البدع، ص ٥١٩ (القرآن).

(٥) الحوادث والبدع، ٦٩ـ١٠١، عن معجم البدع، ص ٥٢٩.

وعامتهم»[١] .

وقد عدَّ العلماء التدبر للقرآن والوقوف عند أحكامه والاعتبار بأمثاله من النصح له، وقد تنوعت عباراتهم في ذلك، فقد قال النووي ـ رحمه الله ـ في بيان النصح لكتابه: «قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: النصيحة لكتاب الله ـ تعالىٰ ـ: هي الإيمان بأنه كلام الله تعالىٰ . . . ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته، وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة . . . والوقوف مع أحكامه، وتفهُّم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم بمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه، وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه»[٢] .

وقال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: (أما النصح لكتاب الله: فشدة حبه وتعظيم قدره؛ إذ هو كلام الخالق، وشدة الرغبة في فهمه، وشدة العناية لتدبره، والوقوف عند تلاوته؛ لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه عنه، ويقوم به له بعد ما فهمه، وكذلك الناصح من العباد يفهم وصية من ينصحه . . . فكذلك الناصح لكتاب ربه، يُعنىٰ بفهمه، ليقوم لله بما أمر به كما يحب ويرضىٰ، ثم ينشر ما فهم في العباد، ويديم مدارسته بالمحبة له، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه . . . وقال أبو عمرو ابن الصلاح ـ رحمه الله ـ: «والنصيحة لكتابه: الإيمان به، وتعظيمه، وتنزيهه، وتلاوته حق تلاوته، والوقوف مع أوامره ونواهيه، وتفهُّم علومه وأمثاله، وتدبر آياته، والدعاء إليه»[٣])[٤] .

ومما يؤكد فضيلة تدبر القرآن، وفضيلة تدارس القرآن والاجتماع عليه؛

(١) رواه مسلم، ٢ / ٣٧، رقم ٥٥ .
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، ص ١١٣؛ وقال نحو ذلك في المجموع، ٢ / ١٧٠ .
(٣) صيانة صحيح مسلم، ص ٢٢٣، نقلاً عن تعليق محقق جامع العلوم والحكم، ١ / ٢٢٢ .
(٤) جامع العلوم والحكم، ١ / ٢٢١؛ ونحو هذا المعنىٰ في معارج القبول، ٢ / ٧٨ .

حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(١).

ولعل قوله ﷺ في الحديث: «من أبطأ به عمله...» إشارة إلىٰ ترك الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن وهجر تدارسه، وأنه مذموم، وصاحبه محروم من هذه الفضائل، بتفريطه في هذا العمل الجليل، ولن يسرع به نسبه ـ أو ما ملك من مفاخر الدنيا ـ ليدرك ما فاته من هذه الأجور العظيمة، والله أعلم.

(١) رواه مسلم، رقم ٢٦٩٩؛ والترمذي، رقم ٢٦٤٦؛ أبو داود، رقم٣٦٤٣؛ وابن ماجه، رقم ٢٢٥؛ وأحمد، ٢/ ٢٥٢، ٤٠٧؛ وابن حبان، ٨٤.

المبحث الثاني

أمور شرعت من أجل تدبر القرآن والتأثر به

أمور شرعت من أجل تدبر القرآن والتأثر به

١ـ إنزال القرآن والتعبد بقراءته:

فقد قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾ [ص: ٢٩]، ولذلك يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه، ويعمل به؛ لا لمجرد التلاوة مع الإعراض عنه»[(١)]. وقال ـ رحمه الله ـ: «تحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه، وجمع الفكر علىٰ تدبره وتعقله، هو المقصود من إنزاله، لا مجرد التلاوة بلا فهم ولا تدبر»[(٢)].

ويقول الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «وفي الآية دليل علىٰ أن الله ـ سبحانه ـ إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تفكر»[(٣)].

٢ـ الترتيل والتغني بالقراءة وتحسينها:

لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾ [**المزمل**: ٤]، ولقوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[(٤)]، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ﷺ: «أحسن الناس قراءة الذي إذا قرأ رأيت أنه يخشىٰ الله»[(٥)]. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث علىٰ تدبر القرآن وتفهُّمه، والخشوع والخضوع، والانقياد والطاعة»[(٦)]، ويقول القرطبي ـ رحمه

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٢١٥.
(٢) مدارج السالكين، ١ / ٤٥١، بتصرف.
(٣) فتح القدير، ٤ / ٤٣٠.
(٤) أحمد، ١٤٧٦؛ والبخاري، رقم ٧٥٢٧؛ ومسلم، رقم ٧٩٢؛ وأبو داود، رقم ١٤٧٠؛ وابن ماجه، رقم ١٣٣٧.
(٥) صححه الألباني ـ رحمه الله ـ، انظر: السلسلة الصحيحة، ٤ / ١١١، رقم ١٥٨٣، وصحيح الجامع، رقم ١٩٤، ١ / ١٠٠؛ وصفة الصلاة، ص ١٢٥. وستأتي روايات أخرىٰ ص ١١٥، هامش (٤).
(٦) فضائل القرآن، ص ١٢٥.

الله ـ: «الترتيل أفضل من الهذّ؛ إذ لا يصح التدبر مع الهذّ»[١]، وقال السيوطي ـ رحمه الله ـ: «تُسن القراءة بالتدبر والتفهُّم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم»[٢]، قال النووي ـ رحمه الله ـ: «قال العلماء: والترتيل مستحب للتدبر وغيره . . . لأن ذلك أقرب إلىٰ التوقير والاحترام، وأشد تأثيراً في القلب»[٣]. وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «الخشوع هو مقصود التلاوة»[٤]، ولما ذكر النووي ـ رحمه الله ـ من كره الألحان في القراءة قال: «لخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والتفهم»[٥].

٣ ـ صلاة الليل والقراءة فيه:

حيث قال ـ سبحانه ـ: ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ [**المزمل**: ٦]، قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «وقوله: ﴿**أَقْوَمُ قِيلاً**﴾: هو أجدر أن يفقه القرآن»[٦]، ويقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ عن مدارسة جبريل لرسول الله ﷺ في كل ليلة من رمضان ـ: «المقصود من التلاوة الحضور والفهم؛ لأن الليل مظنة ذلك لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية»[٧].

وهناك من الشواهد ما يدل علىٰ اقتران قراءة القرآن بالليل؛ فمنها قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ**﴾ [**آل عمران**: ١١٣]، وقوله ﷺ: «من نام عن حزبه فقرأ فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل»[٨].

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ١٩٢.
(٢) الإتقان في علوم القرآن، ١ / ١٤٠.
(٣) التبيان، ص ٦٥.
(٤) الفتح، ٩ / ٩٢.
(٥) شرح النووي علىٰ مسلم، ٦ / ٨٠.
(٦) رواه أبو داود، رقم ١٣٠٤، وحسنه الألباني.
(٧) فتح الباري، ٩ / ٤٥.
(٨) رواه مسلم، ٧٤٧.

وقوله ﷺ عن شفاعة القرآن يوم القيامة لصاحبه: «فيقول القرآن منعته النوم بالليل»[١].

٤ ـ سلامة التلاوة وإتقان التجويد:

فقد قال ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع الكرام السفرة»[٢]، وكونه ماهر به يشمل إتقانه للحفظ، وسلامة التلاوة، وإتقان التجويد. ومعلوم أن مبنى الكلام قائم على المعنى، ولا شك أن سلامة النطق تزيد الفهم، وتكمل الإدراك وتعين على التدبر. وإذا اختل النطق بالكلمة أو بإعرابها فإن المعنى يتغير أو يكون ناقصاً أو غير بيّن؛ وكل ذلك مما يبعد القلب عن التدبر وتفهُّم الآيات. قال السيوطي ـ رحمه الله ـ: «إن التحقيق[٣] يكون للرياضة والتعلم والتمرين، والترتيل يكون للتدبر والتفكر والاستنباط . . . وليس كل ترتيل تحقيقاً»[٤].

٥ ـ الاستعاذة:

حيث يقول ـ تعالى ـ: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [**النحل**: ٩٨]، وثبت من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة استفتح ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»[٥]، ومعلوم أن الشيطان أحرص ما يكون على

(١) رواه أحمد، والبيهقي في شعب الإيمان، قال الهيثمي: إسناده حسن، فيض القدير، ٤ / ٢٥٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٧٧٦، وتخريج المشكاة ١٩٦٣، انظر: رهبان الليل، ١/ ١٦٩.

(٢) رواه البخاري، رقم ٤٩٣٧؛ ومسلم، رقم ٧٩٨؛ وأبو داود، رقم ١٤٥٤؛ والترمذي، رقم ٢٩٠٤؛ وابن ماجه، رقم ٣٧٧٩.

(٣) التحقيق: هو المأخوذ به في مقام التعليم ليرتاض اللسان على التلاوة السليمة. وقيل: إن مرتبة التحقيق لا تجوز إلا في مجال التعليم فقط. انظر: بغية المريد، للحرازي، ص ٧٩.

(٤) الإتقان، ١ / ١٣٢.

(٥) رواه أحمد، ٣ / ٥٠، والترمذي، ٢٤٢، وأبو داود، ٧٧٥، وابن ماجه، ٨٠٤، والنسائي، ٢ / ١٣٢، والدارمي، ١ / ٢٨٢، والدارقطني، ٢٠١، والبيهقي، ٢ / ٣٤، وقال عنه الترمذي: أشهر حديث في الباب. وصححه الألباني في صحيح الترمذي، ٢٠١.

الإنسان إذا تلا القرآن، ولهذا أمرَ ـ سبحانه ـ بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن، وفي ذلك فوائد(١). وهي :

أ ـ أن القرآن شفاء لما في الصدور، فتكون الاستعاذة تنقية لما في القلب مما ألقىٰ الشيطان من الشرور.

ب ـ أن الملائكة تدنُو من قارئ القرآن وتستمع له، وتثبت القلب بالسكينة؛ والاستعاذة تطرد الشياطين.

ج ـ أن الشيطان يشغل القارئ، ويقبل عليه في الصلاة ـ وفي غيرها ـ بخَيْله ورَجله، فيحرص جهده علىٰ أن يحول بين القلب وبين مقصود القرآن، وهو تدبره وتفهُّمه والتأثر به، والاستعاذة تدفع ذلك.

د ـ أنه ما من رسول ولا نبي إذا قرأ القرآن إلا ألقىٰ الشيطان في قراءته، فهذا فعله مع الرسل فكيف بغيرهم؟ ولهذا فهو يُغالط القارئ، ويُنسيه ويشوش عليه لسانه، أو يشغل قلبه وذهنه أو يجمعهما له؛ ولهذا وغيره أُمِرَ بالاستعاذة.

هـ ـ أن الاستعاذة تمنع الشيطان من أن يفسد ما في القلب من الهدىٰ والنور والعلم والخير بتفهُّم القرآن وتدبره.

٦ـ الإنصات عند سماع القرآن :

لقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [**الأعراف**: ٢٠٤]، قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «أمرهم الله ـ سبحانه ـ بالاستماع للقرآن والإنصات له عند قراءته لينتفعوا به، ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح»(٢).

---

(١) انظر تفصيلها وزيادة علىٰ ما ذكر في إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ١ / ١٠٩، لابن القيم ـ رحمه الله ـ.

(٢) فتح القدير، ٢ / ٢٨٠.

٧- الجهر بالتلاوة:

لتعين القارئ على جمع قلبه على المعاني، وتمنع شرود الذهن، فقد قال ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهر به»(١).

ولقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك؛ فعن أم هانئ - رضي الله عنها - قالت: «كنت أسمع قراءة النبي ﷺ وأنا على عريشي»(٢)، وسُئل ابن عباس - رضي الله عنهما - عن جهر النبي ﷺ بالقراءة بالليل؛ فقال: «كان يقرأ في حجرته قراءةً لو أراد حافظ أن يحفظها فعل»(٣).

ومما يدل على العناية بالجهر بالقراءة ما رواه أبو قتادة - رضي الله عنه -: «أن النبي ﷺ خرج ليلة؛ فإذا بأبي بكر - رضي الله عنه - يصلي يخفض من صوته، ومرَّ على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو يصلي رافعاً صوته، قال: فلما اجتمعا عند النبي ﷺ قال: يا أبا بكر، مررت بك وأنت تصلي تخفض من صوتك؟! قال: قد أسمعتُ من ناجيتُ يا رسول الله. وقال لعمر: مررت بك وأنت تصلي ترفع صوتك؟! فقال: يا رسول الله، أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان. فقال النبي ﷺ: يا أبا بكر! ارفع من صوتك شيئاً. وقال لعمر: اخفض من صوتك شيئاً»(٤). وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»(٥).

---

(١) رواه البخاري بهذا اللفظ، رقم ٧٥٢٧.
(٢) رواه النسائي، رقم ١٠١٣؛ ومختصر قيام الليل، ١٣٢؛ وحسنه الألباني في صحيح النسائي.
(٣) مختصر قيام الليل، للمروزي، ١٣٣.
(٤) رواه أبو داود، رقم ١٣٢٩؛ وصححه النووي في المجموع، ٣/ ٣٩١؛ والحاكم ووافقه الذهبي، والألباني في صفة صلاة النبي ﷺ، ص ١٠٩.
(٥) رواه البخاري، رقم ٤٢٣٢؛ ومسلم، رقم ٢٤٩٩.

وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة»(١).

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به؛ وذلك لأنه إذا حسن الصوت به كان أوقع في النفوس، وأسمع في القلوب»(٢).

قال الزركشي ـ رحمه الله ـ: «ويستحب الجهر بالقراءة . . . نَعَم؛ من قرأ والناس يصلون فليس له أن يجهر جهراً يشغلهم به؛ فإن النبي ﷺ خرج على أصحابه وهم يصلون في المسجد فقال: يا أيها الناس، كلكم يناجي ربه، فلا يجهر بعضكم على بعض في القراءة(٣)»(٤).

وقال النووي ـ رحمه الله ـ عن الحكمة من مشروعية الجهر: «أنه يتعدىٰ نفعه إلىٰ غيره، ويوقظ القلب، ويجمع همَّه إلىٰ الفكر، ويصرف سمعه إليه»(٥).

٨ ـ حسن الابتداء والوقف:

يقول النووي ـ رحمه الله ـ: «وينبغي للقارئ إذا بدأ من وسط السُّور، أو وقف علىٰ غير آخرها؛ أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضه ببعض، وأن يقف

(١) رواه الترمذي، رقم ٢١١٩، وقال: حديث حسن غريب؛ وصححه الألباني في صحيح الترمذي؛ ورواه أبو داود، رقم ١٣٣٣؛ والنسائي، ٥ / ٨٠؛ وأحمد، ٤ / ١٥١، ١٥٨، والبيهقي في الكبرىٰ، ٣ / ١٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ١١.
(٣) أخرجه أحمد، ٢ / ٦٧، بلفظ: «إن المصلي يناجي ربه ـ عز وجل ـ فلينظر أحدكم بما يناجي ربه، ولا يجهر بعضكم علىٰ بعض بالقراءة»، وأخرجه أبو داود، أبواب قيام الليل، باب: رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، رقم ٣١٥.
(٤) البرهان، للزركشي، ١/ ٥٤٧.
(٥) التبيان، ص ٧٦.

على الكلام المرتبط، ولا يتقيد بالأعشار والأجزاء؛ فإنها قد تكون في وسط الكلام، كالجزء الذي في قوله: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ**﴾ [النساء: ٢٤]، . . . ولا يغتر بكثرة الفعالين له من القرَّاء الذين لا يرعون هذه الآداب، ولا يفكرون في هذه المعاني؛ . . . ولهذا المعنى قال العلماء: قراءة سورة قصيرة بكاملها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة، فإنه قد يخفى الارتباط على بعض الناس في بعض الأحوال(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ذلك من المصلحة العظيمة بقراءة الكلام المتصل بعضه ببعض، والافتتاح بما فتح الله به السورة، والاختتام بما ختم الله به، وتكميل المقصود من كل سورة، ما ليس في ذلك التحزيب»(٢).

«وأعدل الأقوال في ذلك، قول من كره اعتياد ذلك دون فعله أحياناً؛ لئلا يخرج عما مضت به السنَّة، وعادة السلف من الصحابة والتابعين»(٣).

---

(١) التبيان، ص ٨٢؛ والأذكار، ص ٩١؛ ونحوه في المجموع، ٢/ ١٦٧.

(٢) الفتاوى، ١٣/ ٤٠٥ ـ ٤١٤، وذكر أن أول من أحدث الأعشار والأخماس الحجاج بن يوسف. وانظر: كتاب الحوادث والبدع، ص ١٠٣.

(٣) الفتاوى، ١٣/ ٤١٢.

المبحث الثالث

أمور متوقفة على تدبر القرآن وفهم معانيه

أمور متوقفة على تدبر القرآن وفهم معانيه

هناك مصالح كثيرة مترتبة ومتوقفة على تدبر القرآن، فإذا وجدت رُجي حصولها، وإذا فقد التدبر امتنع حصولها أو يكاد، أو قلّ نفعها أو ضعف شأنها، أو كان فضلها يدور مع التدبر وجوداً وعدماً، ولذلك قال ﷺ: «إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع»(١). ومن هذه الأمور ما يأتي:

١ـ عظم أجر التلاوة:

فإن أجر التلاوة يُرجى بأداء التلاوة، ولكن عظم الأجر يرجى بمزيد التدبر والاعتبار بما يتلوه القارئ، قال النووي ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن التلاوة أفضل الأذكار، والمطلوب القراءة بفهم»(٢). وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «فإن من رتل وتأمل كمن تصدَّق بجوهرة واحدة ثمينة، ومن أسرع كمن تصدَّق بعدة جواهر لكن قيمتها قيمة الواحدة، وقد تكون قيمة الواحدة أكثر من قيمة الأخريات، وقد يكون العكس»(٣).

وقال السيوطي ـ رحمه الله ـ: «وأحسن بعض أئمتنا فقال: إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدراً، وثواب الكثرة أكثر عدداً»(٤)، وقال عن إعراب القرآن: «المراد بإعرابه: معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن؛ لأن القراءة مع فقده ليست قراءة، ولا ثواب فيها»(٥).

---

(١) رواه مسلم رقم، ٧٨٧؛ وأبو داود، رقم ١٣١١؛ والبيهقي، ٣/ ١٦، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) الأذكار، ص ٨٥.
(٣) الفتح، ٩/ ٨٩.
(٤) الإتقان، ١/ ١٤٠.
(٥) المرجع السابق، ١/ ١٤٩.

وقال ابن الجزري ـ رحمه الله ـ: «والصحيح بل الصواب ما عليه معظم السلف؛ وهو أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها»(١).

٢ـ حصول بركة القرآن وانتفاع القلب به:

وفي ذلك يقول الآجري ـ رحمه الله ـ: «وإن الله وعد لمن استمع كلامه فأحسن الأدب عند استماعه، بالاعتبار الجميل، ولزوم الواجب لاتباعه، والعمل به؛ ببشرىٰ منه بكل خير، ووعده علىٰ ذلك أفضل الثواب، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [**الزمر**: ١٧، ١٨]، . . . سمعوا الله يقول: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [**الأعراف**: ٢٠٤]، فكان حسن استماعهم يبعثهم علىٰ التذكر فيما لهم وعليهم»(٢).

قال شيخ الإسلام: «ومن أصغىٰ إلىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ بعقله، وتدبره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والهدىٰ وشفاء القلوب والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام؛ لا منظومه ولا منثوره»(٣).

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكاً وفهماً، وتدبراً، وإجابة؛ . . . لن يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة، وتبصرةً لعبرة، وتذكرةً لمعرفة، وفكرةً في آية، ودلالةً علىٰ رشد، . . . وحياةً لقلب، وغذاءً ودواءً وشفاءً، وعصمةً ونجاةً، وكشفَ شبهة»(٤).

ومن هجر التدبر فقد حرم نفسه خيرات كثيرة؛ فقد قال علي ـ رضي الله عنه ـ: «لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها»(٥).

---

(١) النشر، لابن الجزري، ١/ ٢٩٧.
(٢) أخلاق حملة القرآن، ص ١٧.
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ص ٣٨٤، الطبعة الثانية، السنة المحمدية.
(٤) مدارج السالكين، ١ / ٤٨٤.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، ١٤ / ٣٤٤.

٣ـ التفضيل بين القراءة من المصحف والقراءة عن ظهر قلب :

فإن هذا منوط بالتدبر ، قال النووي ـ رحمه الله ـ في ذلك : «ولو قيل : إنه يختلف باختلاف الأشخاص ، فيختار القراءة في المصحف لمن استوىٰ خشوعه وتدبره في حالتي القراءة في المصحف وعن ظهر قلب ، ويختار القراءة عن ظهر قلب لمن يكمل بذلك خشوعه ، ويزيد علىٰ خشوعه وتدبره لو قرأ من المصحف ؛ لكان هذا قولاً حسناً ، والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول علىٰ هذا التفصيل»(١) .

٤ ـ التفضيل بين القراءة في الصلاة والقراءة خارجها :

يقول في ذلك شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : «الصلاة أفضل من القراءة في غير الصلاة ، ولكن من حصل له نشاط وفهم للقراءة دون الصلاة ؛ فالأفضل في حقه ما كان أنفع له»(٢) .

٥ ـ التفضيل بين الجهر بالقراءة والإسرار بها :

يقول النووي ـ رحمه الله ـ : «جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة وآثار بفضيلة الإسرار ، قال العلماء : والجمع بينهما أن الإسرار أبعد من الرياء ، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك ، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل ، بشرط أن لا يؤذي غيره من مصلٍّ أو نائم أو غيرهما . ودليل فضيلة الجهر أن العمل فيه أكثر ، ولأنه يتعدىٰ نفعه إلىٰ غيره ، ولأنه يوقظ القلب ويجمع همَّه إلىٰ الفكر ، ويصرف سمعه إليه» ـ إلىٰ أن قال ـ : «فمتىٰ حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل»(٣) .

---

(١) التبيان ، ص ٧١ ؛ ومثله في الأذكار ، ص ٩١ ؛ وانظر : الإتقان ، ١ / ١٤٢ ، فقد نقل قول ابن عبد السلام في تعليله تفضيل القراءة من الحفظ : «لأن فيه من التدبر ما لا يحصل بالقراءة في المصحف» . ولمزيد تفصيل ينظر فتح الباري ، باب القراءة عن ظهر القلب ، ٩/ ٧٨ .

(٢) الفتاوىٰ ، ٢٣ / ٦٣ .

(٣) الأذكار ، ص ٩١ ؛ وفي التبيان مزيد تفصيل ، ص ٧٦ ؛ ونحوه في المجموع ، ٢ / ١٦٦ .

٦ ـ ترتيب أولويات طلب العلوم:

فإن قراءة القرآن بلا تدبر قد تكون مفضولة، ومع التدبر تكون مقدمة لأنها أنفع لطالب العلم، وقد سئل شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عمن يحفظ القرآن أيما أفضل له: تلاوة القرآن مع أمن النسيان، أو التسبيح وما عداه؟ فأجاب: «الواحد من هؤلاء يجد في الذكر من اجتماع قلبه، وقوة إيمانه، واندفاع الوساوس عنه، ومزيد السكينة والنور والهدىٰ ما لا يجده في قراءة القرآن، بل إذا قرأ القرآن لا يفهمه أو لا يحضر قلبه وفهمه، . . . كما أن من الناس من يجتمع قلبه في قراءة القرآن وفهمه وتدبره ما لا يجتمع في الصلاة. وليس كل ما كان أفضل يشرع لكل أحد، بل كل واحد يشرع له أن يفعل ما هو أفضل له»(١).

وسئل ـ رحمه الله ـ عن تكرار القرآن والفقه: أيهما أفضل وأكثر أجراً؟ فأجاب: «كلام الله لا يقاس به كلام الخلق، . . . وأما الأفضل في حق الشخص: فهو بحسب حاجته ومنفعته؛ فإن كان يحفظ القرآن وهو محتاج إلىٰ تعلُّم غيره، فتعلمه ما يحتاج إليه أفضل من تكرار التلاوة التي لا يحتاج إلىٰ تكرارها، وكذلك إن كان حفظ من القرآن ما يكفيه وهو محتاج إلىٰ علم آخر، وكذلك إن كان قد حفظ القرآن أو بعضه، وهو لا يفهم معانيه فتعلمه لما يفهمه من معاني القرآن أفضل من تلاوة ما لا يفهم معانيه. وأما من تعبد بتلاوة الفقه فتعبده بتلاوة القرآن أفضل، وتدبره لمعاني القرآن أفضل من تدبره لكلام لا يحتاج لتدبره»(٢).

٧ـ قصر المدة التي يختم فيها القرآن:

فإن فضيلتها مترتبة علىٰ فهم القرآن، وتدبره، وتأثر القلب به.

وحينما سئل زيد بن ثابت: كيف ترىٰ في قراءة القرآن في سبع؟ قال:

(١) الفتاوىٰ، ٢٣ / ٥٦ ـ ٦٣، وقد ضرب ـ رحمه الله ـ شواهد تدلل علىٰ ما قرره.
(٢) الفتاوىٰ، ٢٣ / ٥٥.

«حسن، ولأن أقرأه في نصف شهر أو عشر أحب إليّ. وسلني: لم ذاك ؟» قال: فإني أسألك؟ قال زيد: «لكي أتدبره وأقف عليه»(١).

وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ عن قراءة الإمام في صلاة التراويح: «ليس المهم أن يختم، وإنما المهم أن ينتفع الناس في صلاته، وفي خشوعه، وفي قراءته؛ حتىٰ يستفيدوا ويطمئنوا . . . لأن عنايته بالناس، وحرصه علىٰ خشوعهم، وعلىٰ إفادتهم أهم من كونه يختم»(٢). «وليس هذا موجباً لأن يتعجل، ولا يتأنىٰ في قراءته، ولا يتحرىٰ الخشوع والطمأنينة، بل يتحرىٰ هذه الأمور أولىٰ من مراعاة الختمة»(٣) .

(١) أخرجه مالك في الموطأ، ١ / ٢٠١.
(٢) الجواب الصحيح من أحكام صلاة الليل والتراويح، ص ١٢ .
(٣) المرجع السابق، ص ١٤ . ولمزيد من التفصيل ينظر فقرة (مدة ختم القرآن)، ص ١١٩ .